النظام الاقتصادى الاسلامى

يحقق العـــدالة الاشتراكية

ولا يتنكر للروح والأخلاق

بقلم الأستاذ

طه عبد الباقى سرور

لكل نظام اقتصادى عرفته الإنسانية ، فلسفة خاصة به ، استوحاها من سياسته ورسالته .

ولكل نظام إقتصادى عناصر يتميز بها ويقوم عليها ، ومن مجموع هذه الفلسفة ، وهذه العناصر ، يتكون النظام الإقتصادى ، ويأخذ الاسم الذى يتفق مع هذه الفلسفة ، ويتسق مع هذه العناصر .

وفلسفة النظام الرأسمالى تتمثل وتتجسد فى الفردية ، وتمهد للفرد سبل الاستغلال ، وتمنحه ما تشاء من ربح واحتكار .

ومن هنا يرتكز هذا النظام على الملكية الفردية والحرية الفردية ، ويتجه إلى تحقيق الفلسفة الفردية المطلقة التى يقوم عليها ، ويؤمن بها غير ملتفت إلى مصلحة الجماعة ولا مقدر لها .

وللنظام الشيوعى فلسفته وعناصره التى تخدم رسالته التى يقوم عليها ، والتى تتمثل فى عدم الإعتراف بالفرد وحريته ، والإيمان بالجماعة إيماناً يمنحها دكتاتورية مطلقة .

الجماعة التى تملك أموال الإنتاج ، وتملك رأس المال ، وتملك كل شىء فى الأرض والسماء ، حتى الضمائر والعواطف والمشاعر .

فالفرد آلة مسخرة ، ليس له أن يفكر ، بل ليس له أن يختار ما يعمل وما يأكل وما يرتدى .

والنظام الإقتصادى الإسلامى الذى انبثق من الرسالة الكلية الإسلامية ، لا يستمد فلسفته من الفرد فحسب ، مهدراً مصلحة الجماعة ، كالنظام الرأسمالى ، ولا يستمد فلسفته من الجماعة فحسب مهدراً مصلحة الفرد وحريته وملكيته .

وإنما يقوم ويرتكز على أصلين أساسيين جمع فيهما أصلح ما فى النظامين الرأسمالى والشيوعى .

أولهما الاعتراف بمواهب الفرد وحقه المقدس فى ثمرات كفاحه وعمله ، وهذا هو الأساس الذى بنى عليه النظام الرأسمالى العالمى .

ثم تقرير حق المجتمع الإسلامى فى كسب الفرد ووجوب التكافل بين أبناء الأمة وهو الأساس الذى بنى عليه النظام الشيوعى الدولى .

وبذلك المزج ، اختص الإسلام بأفضل ما فى النظامين ، وقدمه رحمة وهدى للانسانية ، فى صورة اشتراكية اجتماعية إيمانية ، جوهرها الأخوة الإنسانية الرحيمة ، والمبادىء الخلقية الرفيعة ، قبل أن تعرف الدنيا فلسفة النظامين بأربعة عشر قرناً .

وبذلك تخلص النظام الإسلامى الإقتصادى ، من أنانية الفرد ، وطغيان رأس المال وجبروته واستبداده ، وإهداره لكل القيم الأخلاقية والإنسانية ، فى سبيل مطامعه ومغامراته أو جشعه وشهواته .

كما تخلص من دكتاتورية الجماعة وطغيانها وتحكمها ، وإهدارها لحق الفرد ، وتنكرها لذاتيته ، وقتلها لمواهبه ونشاطه ، ودوافع غرائزه .

ثم يأتى الروح الإسلامى العام ، ليضفى على الإقتصاد الإسلامى نسمات من روح الله وهداه .

فالنظام الإقتصادى الإسلامى ، لا تنفصل نظمه وقواعده عن الشعور والسلوك والضمائر والوجدانيات والقيم .

وتلك هى ميزة الإقتصاد الاسلامى الكبرى :

إنه اقتصاد ينى بحاجات الناس ، ثم تتوجه إنسانية فاضلة ، وعدالة هادفة ، وأنوار سماوية تصعد به إلى آفاق الإيمان والرسالة :

إنه اقتصاد أسس على الأخلاق ، وعلى التقوى ، وعلى التراحم ؛ فهو ليس بمواد جافة ، بل هو حياة حية .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما ، ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً . . . » .

وهذه الآية ترشدنا إلى روح مبين من فلسفة هذا النظام . فقد اشترطت مشروعية التجارة بأمرين : الأول أن تكون هذه التجارة عن تراض بين الفريقين . والثانى ألا تكون منفعة فريق قائمة على خسارة الفريق الثانى وذلك ما يوضحه « ولا تقتلوا أنفسكم » من هذه الآية ، وقد فسره المفسرون على معنيين ، ينطبق كل منهما فى هذا المقام . . . فالمعنى الأول : أن لا يقتل بعضكم بعضا ، والمعنى الثانى أن لا تقتلوا أنفسكم بأيديكم .

فمؤدى هذه الآية على كل حال ، أن كل من يضر غيره لمنفعته الشخصية ، فكأنه ينزف دمه ، ولا يفتح طريق الهلاك إلا على نفسه فى نهاية الأمر .

فالسرقة والرشوة والقمار والغرر والخديعة والتدليس والربا ، وكثير غيرها من طرق الكسب ، يوجد فيها كل من هذين السببين لعدم المشروعية ، وإذا كان يوجد فى بعضها شرط « التراضى » فإنه يعوزه الشرط المهم الذى يتضمنه قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم [1] » .

وحينما تنظر الرأسمالية إلى الإنسان كسلعة ، وتنظر الشيوعية إلى الإنسان كآلة مسخرة ، ينظر الإسلام إليه كروح وحس وشعور ورسالة سماوية .

وحينما تعبد الرأسمالية الدولار وتوابعه ، وتفسر الشيوعية التاريخ والدين بالاقتصاد وضروراته ، ينظر الإسلام إلى المادة كشىء مسخر لخدمة الإنسان .

يقول الصحفى الأمريكى « جون جنتر » فى كتابه « فى داخل أوربا » .

---

(١) أسس الاقتصاد لأبى الأعلى المودودى ص ١٥١ — ١٥٢ .

«إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام فى الأسبوع، ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة».

ويقول العلامة «جود» رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن:

«إن شعار أوربا: لانستطع أن نجمع بين عبادة الله، وعبادة المال»[1]... ويقول:

«وعقيدتنا أن الثروة — ولاسواها — هى القياس الصحيح لعظمة الفرد».

ويقول «كارل ماركس»:

«إن المال هو الذى يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة»... ويقول:

«إن النظام الاقتصادى هو روح الاجتماع، وإن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها إنعكاس لهذا النظام الإقتصادى».

لقد أصبح المال هو الإله الأكبر الذى تسجد جباههم جميعاً فى محرابه... الإله الذى يحرق الأخلاق والأعراض والكرامات والمقدسات، والمثل والقيم، بخوراً ذليلا فى ساحاته.

لقد فقد الإنسان فى النظامين «الرأسمالى والشيوعى» ذاتيته وحريته وكرامته واستعبد ذليلا مهيناً لسطوة المال، وسخر عبداً رخيصاً لمغامراته وأهدافه.

لقد قيم كل شىء فى الفلسفتين بالمال، وأصبح الإنسان أرخص هذه القيم، وأحقر هذه السلع...

إن كل ما أصاب الإنسانية فى عصرنا: من فجور وتحلل وإلحاد وتحرر واستعباد واستعمار... وكل ما تتقلب فيه الحياة اليوم: من جاهلية وثنية، وبربرية وحشية، ومذاهب وجودية، وفلسفات مادية إنما انبثق كل هذا وانبعث من بنوك هذا إلا له المادى المتغطرس الجبار.

الإله الرهيب الذى يتجلى مهيمناً وسيداً وحاكما على مقدرات البشرية وأهدافها وسلوكها فى ظل النظامين الإقتصاديين العالميين الرأسمالى والشيوعى.

---

(١) ص ١٧٢ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى.

ومن هنا كانت الفروق الأساسية ، النفسية والجذرية ، بين النظم الإقتصادية العالمية ، والنظم الاقتصادية الاسلامية واضحة وضوحاً مبيناً فى روحها وأهدافها .

فالحياة الاقتصادية فى نظر الاسلام ، حياة تراحم وتعاون وتكافل ورحمة ، حياة إنسانية لها مثل عليا تستمدها من رسالتها وعقيدتها .

بينما هى فى النظرة الرأسمالية والشيوعية على السواء ، حياة صراع وتقاتل ، وسيطرة واستعباد ، صراع تحترق فيه وتفنى كافة القيم العليا ، لتبقى قيمة واحدة ، حية مهيمنة هى قيمة رأس المال الفردى أو الجماعى .

إن الاسلام فى كافة نظمه وتشريعاته ، هو توازن وتعادل ، فلا روحانية حالمة تحلق بعيداً عن واقع الحياة ، ولامادية مظلمة جشعة حقود ، تتنكر للروح وللفضيلة : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » .

ولقد أتهم الاسلام فى العصر الحديث بأنه خلو من التفكير الاقتصادى ، بل لقد أتهم بالرجعية الرأسمالية ، وأنه استغلال للطبقات المستضعفة من العمال والفلاحين والكادحين كافة .

وسر الاتهام الجهل بالاسلام ونظمه ، وروحه ورسالته . لقد جاء الاسلام دعوة تحريرية بكل ما فى التحرر من معانى واسعة عريضة ، بل جاء ثورة إلهية — إن جاز هذا التعبير — على الجمود والضعف والرجعية المادية والعقلية .

جاء فى نظامه الاقتصادى باشتراكية رشيدة هادفة تحقق التعاون بين الطبقات فى ظل المحبة ، وتكفل التطور الهادف فى نطاق كليات مرنة تتسع آفاقها لكل خطو بشرى واتجاه حضارى .

ولهذا فالنظم الاسلامية فى سيرها وتطورها لا تجد حرجاً فى أن تقتبس من هنا وهناك ما يتفق مع روحها ، ويتلائم مع وجهتها ، ويتسق مع أهدافها فى نطاق نظرتها الإيمانية الربانية .

وبهذا كله تمشى النظم الإسلامية حية نامية متطورة محتفظة بفاعليتها وإيجابيتها وصلاحيتها الخالدة ، غير منعزلة عن خطو التاريخ ، ولا متخلفة عن موكب الحضارة .

تمشى وبيدها مشعلها ورسالتها ، التى تصنع خير أمة أخرجت للناس .

يقول العلامة — ماسنيون — فى كتاب « الإسلام والنظام العالمى الجديد » : إن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض ذكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عملياً المبادلات التى لا ضابط لها ، وحبس الثروات ، كما يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجيات الأولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت إلى جانب حقوق الولد والزوج ويشجع الملكية الفردية ورأس المال التجارى ، وبذا يحل الإسلام — مرة أخرى — مكاناً وسطا بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية .

وعلى ذلك فالإسلام هو خالق السلام بين النظم الاقتصادية المتنازعة فى أول الغرب ، فلنظامه الاجتماعى خصائص لا نجدها فى غيره فهو لا يدع العوامل الاقتصادية تشغل الذهن البشرى بحيث تنسيه القيمة العالية للحياة ، لأن من أول ما يتلقاه المسلم من الدروس هو أن واجب الله مقدم على كل واجب سواه .

وإنه ليعلم أن عليه أن يركز كل انتباهه فى عمله ليكسب عيشه ، ولكن يعلم فى نفس الوقت إن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط ، وإن للحياة قيمة أعلى تتداعى أمامها كل قيمة مادية .

ذلك شعاع نلقى به على نظمنا الاقتصادية الإسلامية الشامخة ، التى انبثقت من روح تشريعنا القرآنى ، فكفلت للإنسانية منهجاً وسطا وصراطاً مستقيماً ، وحياة آمنة سعيدة مبرأة مما أصيبت به أوربا فى خلقها وروحها ، ومطهرة من تلك العبودية المادية التى تحترق أوربا بسعارها ونارها ؟ .